مصطفى كامل

بقلم : محمود عوض

وبريشة : مصطفى حسين





نوابغ العرب

٥

الطبعة الثانية

دار المعارف

٥

مصطفى كامل

بقلم : محمود عوض

بريشة : مصطفى حسين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

مُصطفى كامل

دخل الجندى المكلف بإحضار البريد إلى المعسكر الكبير ، وظل يبحث عن الملازم أول على أفندى فهمى .

إن الضابط على فهمى ينتظر منذ أيام رسالة من أخيه فى مصر ، فقد مرت فترة طويلة لم يكتب له أخوه شيئاً خلالها ، بسبب انشغاله فى الامتحان . وهكذا ازداد قلق الأخ على أخيه ، وأصبح ينتظر بين ساعة وأخرى رسالة من أخيه تطمئنه على أحواله الدراسية .

إن الضابط على فهمى يعيش فى السودان – بعيداً عن أخيه وعن أسرته كلها فهو ضابط فى الجيش المصرى المرابط فى « سواكن » . والسودان جزء من مصر ، والاثنان هما وادى النيل . . بحاكم واحد ، وعلم واحد ، وشعب واحد ، وجيش واحد .

وأخيراً عثر الجندى على الملازم أول على فهمى ، وساق إليه البشرى : هذا هو الخطاب المنتظر . وبلهفة شديدة فتح على أفندى المظروف . . وبدأ يقرأ :

الإسكندرية فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩١ .

أخى حضرة على أفندى فهمى حماه الله . .

السلام عليك أيها الأخ الحبيب . اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التى أمامى ، وهى شهادة الدراسة الثانوية ، قد زالت من أمامى ، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى فأصبح نحيلا ، لا صحيحاً ولا عليلا . ولكنى أؤمل أن تعود إلىّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية . . فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم . وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيراً . وعزمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها « جمعية إحياء الوطن » . وربما دهشت من إقدامى هذا لضعفى الذى تعلمه فى اللغة الفرنساوية . ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضامن لنجاحى . . والله الموفق إلى أقوم سبيل . . .

حفظك الله لأخيك
مصطفى كامل

وبسرعة ارتسمت الفرحة على وجه الضابط الشاب على فهمى . . وبدأ يشعر بالراحة أخيراً ، بعد أن ظل أسابيع طويلة ينتظر هذه البشرى التى زفها إليه أخوه فى الرسالة ، بشرى نجاحه فى الشهادة الثانوية .

ولكن بعد قليل ، بدأ على أفندى يقرأ الرسالة من جديد . إنه فى هذه المرة يقف بعينيه عند سطور معينة فى الرسالة ، ويعيد قراءتها .

لقد توقفت عيناه عند السطور التى أخبره فيها أخوه برغبته فى دخول مدرسة الحقوق : « . . لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم » .

وتوقفت عيناه من جديد عند السطر الذى يقرر فيه أخوه أنه ينوى تأسيس جمعية اسمها « إحياء الوطن » . وعند هذين السطرين ، سرح خيال على أفندى فهمى ، مستعيداً ذكرياته مع أخيه ، الذى لا يزيد عمره الآن عن ١٧ سنة ، ومستعيداً الأيام التى لمس فيها من أخيه تلك الروح الوطنية المتأججة . . التى تولدت فيه فى سن مبكرة ، قبل هذا الخطاب بفترة طويلة .

* * *

ولد مصطفى كامل فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ بحى « الصليبة » التابع لقسم الخليفة بمدينة القاهرة . كان أبوه مهندساً ضابطاً ، ووالدته من فضليات النساء اللاتى تؤمن بأن وظيفتها هى التفرغ تماماً لبيتها وأسرتها وأولادها .

وعندما أتم مصطفى السادسة من عمره ، أدخله أبوه المدرسة الابتدائية ، فتخرج منها فى سنة ١٨٨٧ ، ثم التحق بالمدرسة التجهيزية الثانوية .

وبينما هو ما يزال طالباً فى المدرسة الثانوية . . كان وزير المعارف على مبارك فى زيارة تفتيشية للمدرسة الثانوية التى يدرس بها مصطفى كامل ، ولما رآه الوزير قال له : « يا بنى . . إنك امرؤ القيس ! إننى أتوقع لك مستقبلا عظيماً » .

لقد قال الوزير كلماته هذه . . وهو لا يدرى أن المستقبل العظيم كان قد فتح أبوابه أمام الشاب مصطفى كامل .

إن مصطفى ، برغم أنه ما يزال صغير السن ، إلا أن ميوله ومواهبه قد بدأت تكشف عن نفسها .

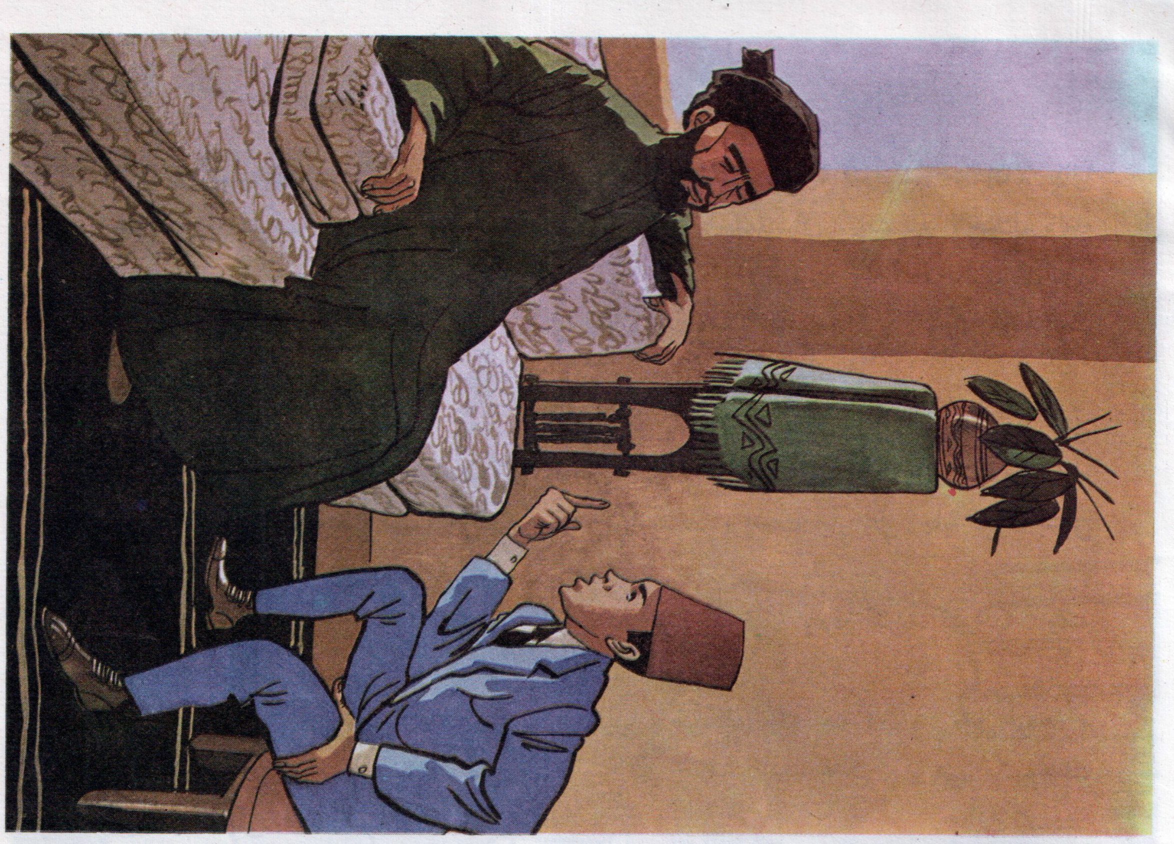
لقد أسس الطالب الشاب فى مدرسته جمعية من زملائه أسماها « جمعية الصليبة الأدبية » . وفى مساء كل يوم جمعة ، كان مصطفى يقف فى الجمعية خطيباً بين زملائه . . مرتجلا خطبة فى كل مرة ، مما جعل زملاءه يطلقون عليه فيما بينهم الخطيب مصطفى .

ولكن مصطفى لم يكن خطيباً فقط !

وعندما حصل مصطفى أخيراً على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) والتحق بكلية الحقوق . . كان أول مشروع فكر فيه إصدار مجلة للكلية أسماها مجلة « المدرسة » .

إن مصطفى كان هو محرر المجلة الجديدة وصاحب فكرتها والمسئول عنها ومموِّلها . وعند ما صدر العدد الأول منها سنة ١٨٩٣ اتخذ مصطفى لها شعاراً يقول : « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » .

بهذه البساطة عبر مصطفى مبكراً عن روحه الوطنية ، وهى الروح التى ستجعل منه فيما بعد رمزاً لهذه الوطنية نفسها ، وزعيماً للشعب الذى خرج من بين صفوفه .





إن الشعب المصرى كان فى تلك الفترة يعانى من اليأس والكبت والهزيمة قدراً كبيراً . إن بريطانيا تحتل مصر منذ سنة ١٨٨٢ ، بعد أن تحطمت ثورة الزعيم أحمد عرابى . لقد قام الاحتلال بإلغاء الجيش المصرى ، وأقام بدلاً منه جيشاً هزيلا يقوده الضباط الإنجليز ، وألغى الاحتلال الدستور أيضاً ، ووضع الإنجليز محل المصريين فى كل الوظائف الرئيسية ، وأصبح اللورد كرومر هو مندوب بريطانيا الذى يحكم مصر بيد من حديد .

وكان مصطفى كامل فى هذه الفترة يناقش كل من يقابله فى هذه الأمور . ومن بين الذين التقى بهم عبد الله النديم ، الذى كان خطيباً للثورة العرابية وواحداً من زعمائها . لقد عاد النديم من منفاه فى سنة ١٨٩٢ ، وبعدها اتصل به مصطفى كامل لأنه كان يريد أن يعثر على إجابة لسؤال يشغل باله هو : لماذا فشلت الثورة العرابية ؟

وعندما التقى النديم بالشاب المتحمس ، قال له أشياء كثيرة ، وعرفه أسراراً كثيرة . . ولقنه دروساً كبيرة . . لن ينساها مصطفى كامل .

حصل مصطفى على شهادة الحقوق من كلية « تولوز » بفرنسا فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ . وقبل عودته ، سأله مندوب جريدة « جازيت دى تولوز » الفرنسية التى تصدر بالمدينة قائلا : ما هى مشروعاتك يا مسيو مصطفى بعد عودتك إلى مصر ؟

ورد مصطفى كامل : إننى فور عودتى إلى مصر ، سأنضم إلى صفوف المحامين .

– ولماذا لا تعمل موظفاً ، كمعظم زملائك ؟

– لأننى ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ، ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها .. وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شىء لديكم وهو الدستور ؟ !

إن احتقار الشاب مصطفى كامل لحكومة بلده ، يرجع إلى استسلامها للمحتل الأجنبى وانصياعها لأوامره . إن هذا الشعور يرغبه فى العمل مستقلا ضد المحتل الأجنبى ، ويدافع عن بلده . . حتى ضد الأقلية التى أحاط بها الاحتلال نفسه من المصريين لكى تنفذ أوامره . بهذه المشاعر عاد مصطفى كامل إلى مصر .

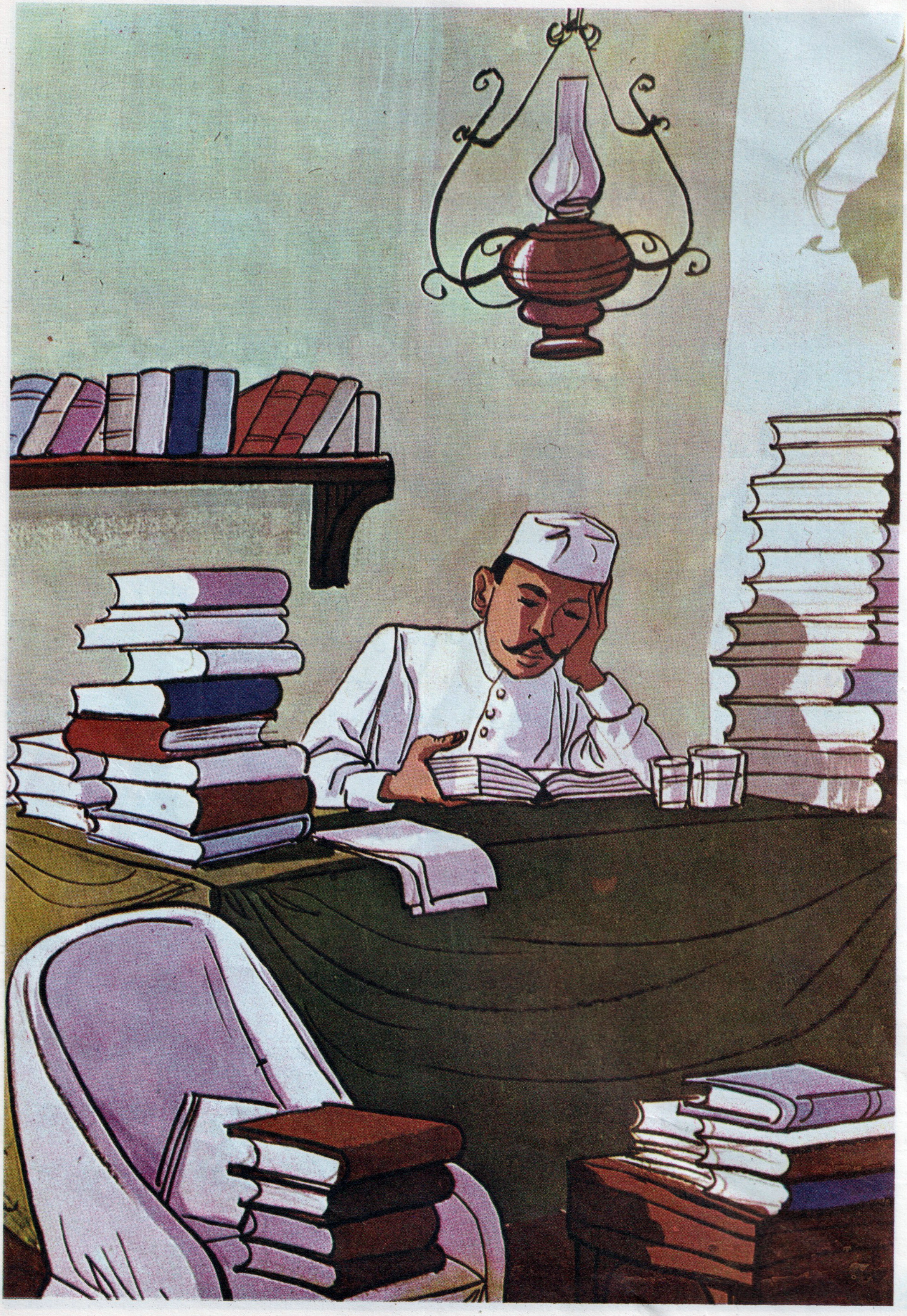
***

وعندما وصلت الباخرة إلى الإسكندرية ، ونزل مصطفى . . فوجئ أخوه الذى كان فى استقباله بصندوقين كبيرين فى صحبة مصطفى .

وسأله : ما هذان الصندوقان ؟

رد مصطفى : كتب . . !

– ألم تنته من الدراسة ؟



ـــ نعم . انتهيت من دراسة القانون . ولكن هذه الكتب تتناول قضية مصر وسياسة الأمم وتاريخ الشعوب . إن قراءتى لها هى دراسة من نوع آخر . دراسة لقضية بلدى ، وللحركات الوطنية فى البلاد الأخرى . إن دراسة الجامعة تجعلنى محامياً ، ولكن دراسة هذه الكتب تجعلنى محامياً عن بلدى .

لقد نذر مصطفى نفسه تماماً لقضية بلده .

ومنذ أن يستيقظ فى السادسة من صباح كل يوم ، وبمجرد تأديته صلاة الصبح وتناوله الإفطار ، كان يبدأ من السابعة صباحاً فى القراءة والعمل لمدة ثمانى ساعات . وبعد الغداء ينام ساعة ، يستأنف بعدها القراءة حتى الخامسة بعد الظهر ، ثم يقضى المساء فى لقاء أصدقائه أو زواره والمناقشة معهم . وفى ختام اليوم لا ينسى مصطفى أن يقرأ لمدة ساعتين قبل النوم .

وشيئاً فشيئاً بدأت حياة مصطفى كلها تدور حول قضية بلده .

لقد بدأ . منذ سنة ١٨٩٥ يسافر إلى أوربا للدعاية لقضية مصر فى الخارج . لقد لمس بنفسه من قبل كيف أشاعت بريطانيا فى أوربا أن المصريين راضون عن احتلالها لبلدهم . وأدرك مصطفى أن عليه أن يزيل هذا الوهم الذى نشرته بريطانيا فى الخارج . ورأى أيضاً أن عليه أن يفضح بريطانيا ويؤلب عليها الرأى العام الأوربى . لهذا بدأ يقوم برحلاته العديدة إلى العواصم الأوربية ، والتى عُدّت فيما بعد من أهم أعمال جهاده الوطنى .

إنه فى باريس يتصل بالعشرات من رجال السياسة والصحفيين والنواب ليشرح لهم قضية بلاده ، إنه من هناك يرسل إلى أخيه رسالة يقول فيها : « إنى أجد من نفسى قوة فى هذه الأيام ماوجدتها فى حياتى ، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قوياً حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة » .

إن جريدة « الأكلير » الفرنسية تكتب عنه قائلة : « لابد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور هام فى المسألة المصرية ، لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق ، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الإنجليزى ، الذى كلما مرت عليه السنوات تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس » .

وعندما سأله مراسل جريدة « النيويورك هيرالد » الأمريكية : ما هى إحساسات المصريين نحو الإنجليز ؟

أجاب مصطفى : إن جميع المصريين كارهون الاحتلال الإنجليزى . . . وقد تعلمنا من الاحتلال أن لاشرف ولاذمة فى السياسة .

إن مصطفى كامل يعلن فى ڤيينا عاصمة النمسا : نحن أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا .

وفى برلين ــ عاصمة ألمانيا ــ يسأله صحفى : أى مهمة سياسية أنت مكلف بها هنا ؟

ويرد مصطفى كامل إنى مكلف من تلقاء نفسى وبواجبى الوطنى بمهمة وطنية محضة يدفعنى إليها إحساسى .



وفى بودابست – عاصمة المجر – يعلن : « لقد أصبح بين المصريين وحكومتهم – مثلما بينهم وبين الإنجليز – فجوة عميقة جداً ، فإن حكومة بلادنا – ورجالها من صنائع الإنجليز – تعمل فى مصر كل ما ينافى رغبة الأمة » .

وفى الآستانة عاصمة تركيا يقول : من كان وطنه وادى النيل عار عليه أن يسلمه لسواه ، ويعيش حقيراً ذليلا غريباً فى بلاده ، أجنبياً فى ربوعه وربوع آبائه وأجداده .

إنه يعود إلى مصر بعد كل رحلة ليخطب فى الشباب قائلا : كل مصرى مسئول عن حالة مصر .

إن شعار مصطفى كامل هو : « إنى لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً » . وكلماته للصحفيين الأوربيين هى : « نحن مسلوبون ، والإنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس هم مغتصبوه » . إن جملته الخالدة هى : « بلادى بلادى ! لك حبي وفؤادى . لك حياتى ووجودى . لك دمى ونفسى . لك عقلى ولسانى . لك لبى وجنانى . فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يامصر » .

إنه يتعرف فى باريس بسيدة فرنسية فى سن أمه ، هى من أعظم شخصيات فرنسا فى الوطنية والسياسة والأدب ، واسمها « جولييت آدم » ، فكتب إليها قائلا :

« سيدتى . . إنى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة » .

إنه فى القاهرة يصدر جريدة يسميها « اللواء » لتكون لسان حال الحركة الوطنية . وفى أوربا يسافر ويتحدث ويخطب ويحاضر ويكتب ويراسل الزعماء والموجهين والنواب . . بغير يأس أو كلل . وفى كل مرة تعلو فيها الأصوات فى أوربا ضد الاحتلال البريطانى ، يحس الاحتلال أن مصطفى كامل وراء كل ذلك .

وشيئاً فشيئاً حاول الاحتلال إرهاب مصطفى كامل . . لعله يهدأ ويسكت . لقد بدءوا يضطهدون شقيقه الضابط بالجيش ، لعل هذا يرهب مصطفى . إن على فهمى – شقيق مصطفى – يعمل ضابطاً فى الجيش المصرى المرابط فى السودان . لهذا يتشدد الإنجليز فى معاملته . وعندما استقال رفضوا استقالته . وعندما لم يرضخ أحالوه إلى الاستيداع . وعندما عاد إلى مصر حاكموه . وفى المحاكمة قرروا تجريده من رتبته العسكرية (وكان ملازماً أول) . لقد أنزلوه إلى درجة « نفر » . . أى جندى بسيط ، وأودعوه السجن ، ثم نقلوه إلى دنقلة فى السودان كجندى بسيط .

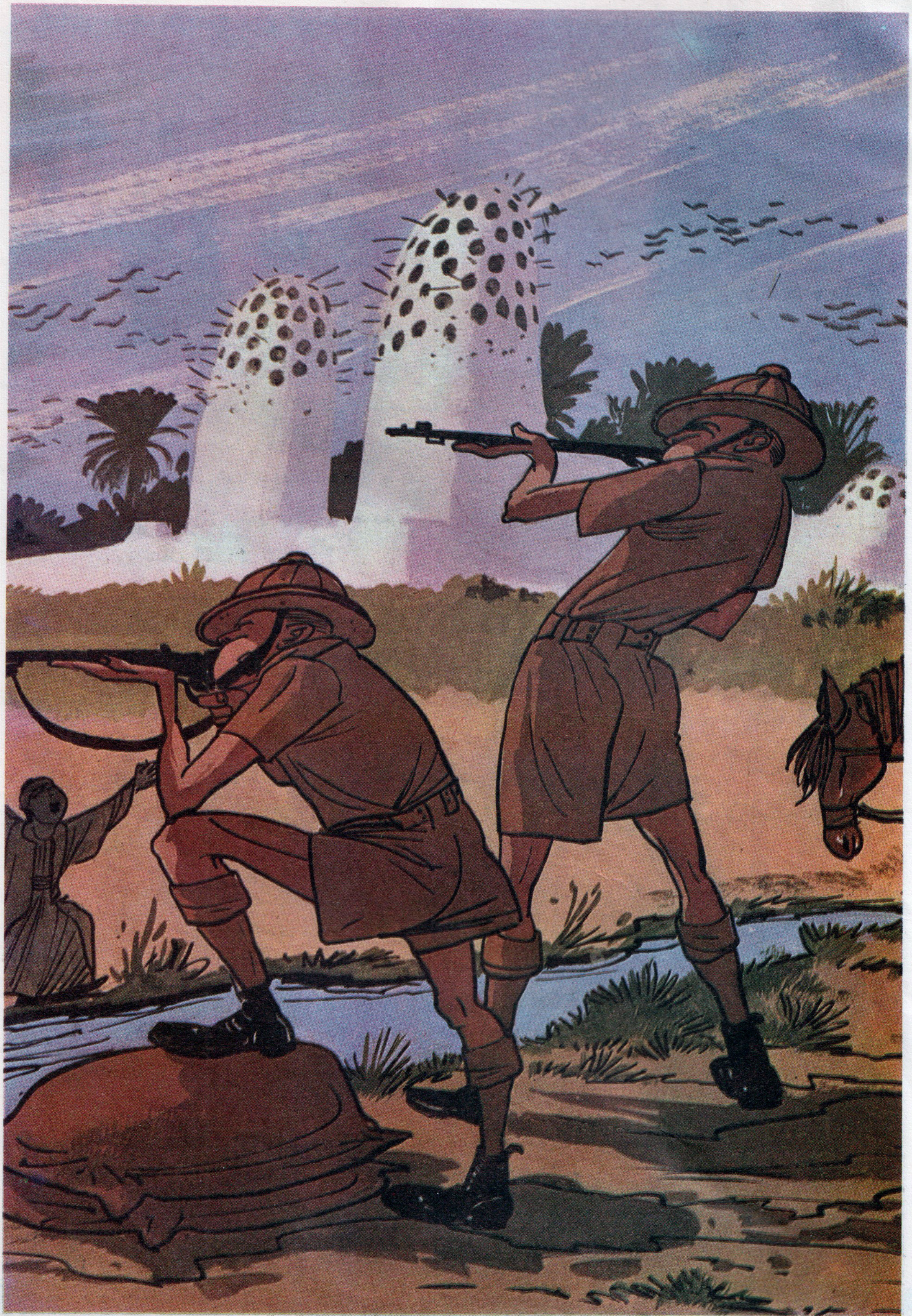
ولكن مصطفى كامل لم يرضخ للإرهاب ، ولم يأبه لهذا الانتقام الملتوى الذى لجأ إليه الاحتلال .

ولكن الاحتلال لم يكن ينتقم من مصطفى كامل فقط . . لقد كان ينتقم من مصر كلها ، إلى أن جاء يوم اتضح فيه هذا الانتقام للعالم كله .

***

كان يوماً رهيباً فى تاريخ مصر .

لقد بدأ اليوم بداية عادية . كل ما هناك أن كتيبة تضم ١٥٠ جندياً بريطانياً ، غادرت القاهرة متجهة بطريق البر إلى الإسكندرية .



وبعد يومين وصلت الكتيبة إلى بلدة « منوف » . وهناك خطر لخمسة من ضباط الكتيبة أن يقضوا يومهم فى صيد الحمام . لقد ذهب « الميجور كوفن » قائد الكتيبة إلى عبد المجيد بك سلطان مأمور مركز منوف ، وقال له بلهجة متعجرفة :

ــ نريد أن نصطاد الحمام فى قرية دنشواى .

وسأله المأمور : ولماذا دنشواى بالذات ؟

قال الميجور : لأنها مشهورة بكثرة الحمام فيها .

سأل المأمور : وماذا تريدنى أن أفعل ؟

رد الميجور : أريد أن تأمر بإعداد مركبات لنا عند الطريق الزراعى الموصل لدنشواى ، وترسل معنا أحد جنودك ليدلنا على الطريق ، وترجماناً مصرياً ، ثم تخطر عمدة دنشواى بقدومنا .

وخلال ساعات كانت الكتيبة الإنجليزية قد عسكرت بالقرب من دنشواى . وهناك وجد القائد الإنجليزى أن كل طلباته قد نفذت إلا واحداً : العمدة !

لقد ذهبوا إلى دنشواى فوجدوا العمدة غائباً .

ولم ينتظر الضباط الإنجليز !

لقد انقسموا إلى فريقين : فريق وقف على الطريق الزراعى يصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك ، وفريق ثان بدأ يتجول وسط أجران القمح فى دنشواى يصطاد ما بها من حمام .

قال الضابط الإنجليزى لزميله : هل ترى يا كابتن بول هاتين الحمامتين الواقفتين على القمح هناك ؟

رد بول : نعم ، وأنا الذى سأسبقك إلى اصطيادهما :

وقبل أن يرد الضابط الأول ، كان زميله قد أطلق النار على الحمامتين .

فى هذه اللحظة فوجىء الضباط الإنجليز بشيخ طاعن فى السن يجرى نحوهم صائحاً : يا خواجه حرام ! أنتم كده هتحرقوا القمح . .

كان هذا الرجل هو الشيخ حسن ، صاحب الجرن ، وهو فى نفس الوقت مؤذن القرية .

ولكن الضابط الإنجليزى لم يعبأ لصياح الشيخ الوقور .

لقد ضغط على الزناد ، واستأنف إطلاق الرصاص مصوباً بندقيته نحو الحمام ، أملا فى أن يصيبه هذه المرة . ولكن الرصاص لم يصب الحمام .

وبدلا من ذلك ، أصاب الرصاص زوجة الشيخ الوقور نفسه . زوجة صاحب الجرن .

وعندما رأى الشيخ زوجته تسقط جريحة متخبطة فى دمائها ، وعند ما رأى النيران تشتعل فى الجرن كله ، أخذ يصيح ويستغيث بأهل القرية .

وخلال لحظات قليلة كان أهالى القرية قد تجمعوا صائحين « الخواجه قتل المرأة وحرق الجرن . . الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن . . »


FIGARO

وحينما أسرع باقى الضباط الإنجليز إلى نجدة زميلهم ، تكاثر الأهالى حول الضباط ، ووصل خفراء القرية ببنادقهم لتهدئة الأهالى الثائرين .

وتصور الضباط الإنجليز أن الخفراء سينضمون إلى الأهالى ، فأطلقوا النيران عليهم أيضاً ، وسقط شيخ الخفراء قتيلا .

وهنا لم يستطع الأهالى تحمل المزيد .

لقد حملوا العصى الغليظة والطوب . . وانهالوا ضرباً على الضباط ، فكسروا ذراع « الماجور كوفين » قائد الكتيبة ، وجرح ضابطان آخران ، واقتيد الجميع إلى نقطة البوليس . . فى الوقت الذى فر فيه الكابتن بول مع طبيب بيطرى إنجليزى يرافقه . إن « بول » أخذ يجرى ممسكاً برأسه الذى أصيب إصابة شديدة . لقد ظل يجرى ويجرى . . إلى أن سقط بعد ثمانية كيلومترات من الإعياء الذى تسببت فيه حرارة الشمس . . وسرعان مامات .

***

لم يكد خبر هذا الحادث ينتشر حتى ثارت قيادة الاحتلال البريطانى فى القاهرة ، وصممت على الانتقام من القرية كلها .

لقد تحرك المستشار البريطانى لوزارة الداخلية على رأس قواته إلى القرية ، وبدأ القبض على العشرات من الأهالى . وشكلت محكمة استثنائية لتوقيع عقوبات صارمة فوراً .

وحتى قبل أن تبدأ المحكمة عملها الصورى ، صدرت الأوامر بإعداد المشانق وإرسالها إلى مكان الحادث !

وخلال أيام قليلة ، عقدت المحكمة جلستها الأولى فى سراى المديرية بمدينة شبين الكوم . لقد رفضت المحكمة أن تسمع أقوال أحد رجال البوليس المصرى عن الحادث ، وقررت ألا تترك سوى ثلاثين دقيقة لكل المتهمين وعددهم أكثر من خمسين متهماً ، للادلاء بكل ما لديهم من أقوال.

إن هدف المحكمة لم يكن تطبيق القانون، وإلا أصبح الضباط الإنجليز هم المذنبين . ولكن الهدف كان هو الانتقام . الانتقام بسرعة . . ووحشية .

وفى النهاية أصدرت المحكمة قرارها : الإعدام لأربعة ، الأشغال الشاقة لثلاثة ، السجن لستة ، الحبس وخمسون جلدة لثلاثة ، خمسون جلدة لخمسة .

قرار آخر : تنفذ الأحكام فوراً ، وعلناً ، وفى قرية دنشواى نفسها .

***

ولكن مصطفى كامل جعل من هذه الجريمة محاكمة عالمية للاحتلال البريطانى .

لقد كان يستشفى فى أوربا بعد أن اعتلت صحته ولكنا ما كاد يتلقى أنباء المحاكمة حتى نسى مرضه ونهض من سريره ليبدأ بكل قوة حملة شعواء ضد الاحلال البريطانى ووحشيته فى مصر. وخلال فترة وجيزة كانت جريدة « الفيجارو » الفرنسية الشهيرة قد نشرت له مقالا ضخماً بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن » ندد فيها بوحشية الاحتلال البريطانى فى مصر، وفضحه أمام الرأى العام العالمى.


اللواء

وأعلن مصطفى كامل أن هذا العمل الوحشى لن يرهب الشعب المصرى لأن « . . . مقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد » .

وأراد مصطفى كامل أن ينقل حملته إلى قلب العاصمة البريطانية ، فسافر إلى لندن ليحرض المعلقين ويكتب المقالات ويعقد الندوات ويلقى المحاضرات ويرسل الخطابات ويعلن المأساة التى ارتكبها الإنجليز فى دنشواى .

إن حادثة دنشواى هزت مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها . ولكن مصطفى كامل استطاع أن يجعلها تهز الضمير الإنسانى فى أوربا من باريس إلى لندن إلى برلين إلى فيشى .

وبينما كان الشعب فى مصر يتابع أخباره بحماس وإعجاب ، قرر عدد من رفاقه تشكيل لجنة فى القاهرة لجمع اكتتاب عام ، بهدف الاحتفال به حين عودته إلى مصر .

وعندما علم مصطفى كامل بذلك ، أرسل من باريس خطاباً إلى زميل كفاحه محمد فريد يقول له فيه : « شكراً لكم وألف مرة شكراً . ولكنى لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه وإكراماً لم أفعل شيئاً لنيله ، ولا يمكننى أن أرضى بأن يكون الشعور الوطنى مما يكافأ الرجل عليه ، وهو لا يكون إلا به » .

لقد اقترح مصطفى كامل فى خطابه أن يكون الاكتتاب بهدف إنشاء جامعة أهلية .

إنه لم يكن يريد من الجامعة أن تكون أول جامعة فى مصر فحسب ، ولكنه كان يحس بأن وجود الجامعة سيجعلها سلاحاً جديداً فى يد الشعب ضد المحتلين . لقد كان هذا هو شعوره قبل سنوات . والآن تأكد هذا الشعور بعد حادثة دنشواى .

***

إن الحادث الذى أراد به الاحتلال أن يرهب الحركة الوطنية فى مصر أدى إلى العكس . لقد أيقظ الشعور الوطنى وقوى الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ، ونبه الصحف العالمية إلى بشاعة الاحتلال البريطانى لمصر ، وأدى إلى قيام مصطفى كامل بحملته فى أوربا ضد بريطانيا ، مما اضطرها إلى تغيير مندوبها فى مصر — اللورد كرومر — بعد أن ظل يحكمها بيد من حديد لمدة ٢٤ سنة .

***

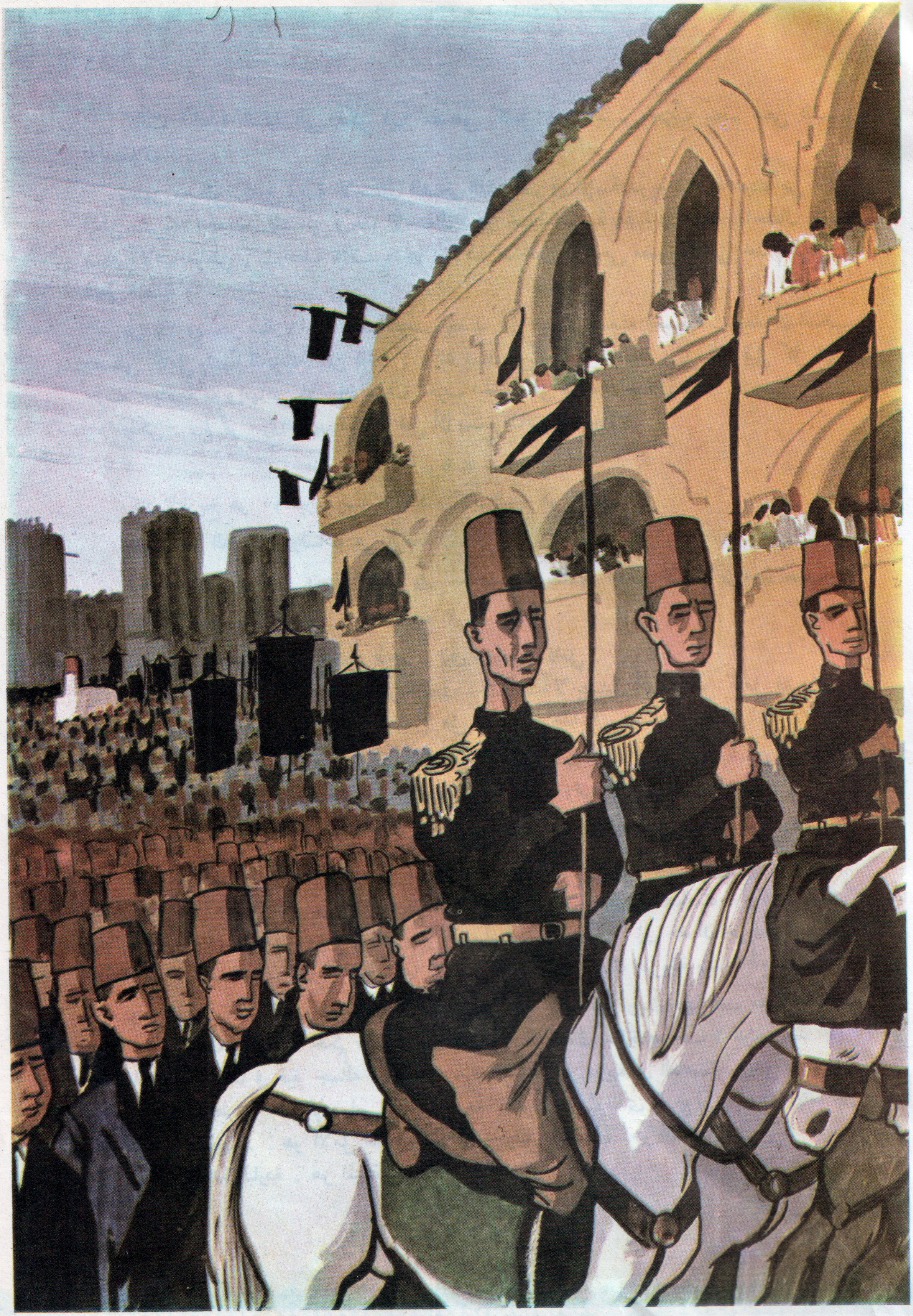
إن حادثة دنشواى أشعلت فى الشعب جذوة الحماس ، وأشعلت فى مصطفى كامل روح التحدى . لقد تحدى الإرهاب واليأس ، فرفع للناس شعاره « لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس » .

لقد تحدى الاستبداد وكتب يصيح « إننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة . . . ولا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبداً » .

لقد ثار على الاستعباد وخطب يقول : « إن سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال ، سواء كانت من ذهب أو من حديد » .

وانطلق مصطفى كامل يحارب الاحتلال ، وينظم الشعب فى هذه الحرب ضده .

***



كانت الخطوة التالية التى فكر فيها مصطفى كامل هى تأسيس حزب ينظم سعى الشعب للاستقلال .

وانتهز مصطفى كامل فرصة الاحتفال الضخم الذى أقيم فى الإسكندرية بمناسبة عودته من أوربا ليعلن مشروعه الجديد . لقد ألقى فى هذا الاحتفال أكبر خطبة سياسية وطنية فى حياته . احتفال حضره سبعة آلاف مواطن . . وخطبة هتف بعدها الآلاف صائحين « لتحى مصر ،ليحى خدام الوطن ، لتحى الوطنية » .

وفى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ عقد الحزب الجديد أول اجتماع لجمعيته العمومية . وبعد أن انتخب مصطفى كامل رئيساً للحزب أعلن قائلا : « إننا لسنا حزباً سياسياً فقط ، بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وإنهاض لها . إن هدف الحزب الجديد هو جلاء الاحتلال » .

ولكن . . لم تمر سوى أشهر قليلة ، قبل أن يسمع الناس بالمفاجأة !

***

كان التاريخ هو ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ . كان اليوم هو الاثنين .

والوقت هو العصر . والساعة هى الرابعة .

لقد بدأ الناس فى الشوارع وعلى المقاهى وفى المساجد ينقل بعضهم لبعض خبراً لا يريدون تصديقه .

إن كل واحد يسأل زميله : هل صحيح ؟

ـ نعم ، صحيح . اليوم توفى الزعيم . توفى مصطفى كامل .

لقد انتشر الخبر فى أنحاء مصر بسرعة البرق . إن أحداً لا يصدق أن مصطفى كامل قد مات . هذا الشباب ؟ هذا الحماس ؟ هذه الشعلة ؟ هل مات كل هذا ؟

نعم . مات مصطفى كامل . ولكن النار التى أشعلها لم تمت أبداً . إن نار الوطنية ،ونار الثورة ضد الاحتلال . . ظلت تشتعل وتشتعل بعد أن اختفى الزعيم الشاب وعمره لا يزيد على ٣٤ عاماً .

لقد خرجت مصر فى اليوم التالى تشيع جثمانه . إنها لم تكن جنازة . . بقدر ما كان موكباً وطنياً .

ولم تتسع الشوارع لمئات الألوف من المواطنين ، فوقف الناس فوق أسطح المنازل وفى شرفاتها . لقد كان منظراً مهيباً أن يسير فى الشوارع هذا الموكب الرهيب الحزين الصامت ، وكلهم يحملون راياتهم السوداء فى أيديهم ، ويرتدون الطرابيش الحمراء فوق رءوسهم . . إلى حد أن جريدة « إيجبت » قالت تصف الجنازة « إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر » .

وعن الموقف نفسه كتب قاسم أمين : « هذه هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل دويها إلى جميع أنحاء القطر . هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة . . من دمها وأعصابها . . هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل » .

نوابغ العرب

مجموعة كتب مبسطة تعطى
الأطفال والشباب فكرة عن
نوابغ العرب فى العصر الحاضر.

صدر منها :

١ طه حسين
٢ أحمد شوقى
٣ سيد درويش
٤ سعد زغلول
٥ مصطفى كامل
٦ جمال الدين الأفغانى

رقم الإيداع	١٩٨٠/٣٧٩١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٤-٤٩-٤

١/٨٠/٢٣٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

ص
٤٠